عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر يعنى صار الماء نصفين نصف من السماء ونصف من الارض وارتفع الماء على اعلى جبل واطوله اربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى اغرق كل شئ ونادى نوح ابنه يعنى كنعان وقرا الجمهور بكسر تنوين نوح لالتقاء الساكنين وكان كافرا كما اثرنا وقرى وابنها وابنه بحذف الالف على ان الضمير لامراته وكان ربيبه وقيل كان لغير رشدة لقوله تعالى فخانتاهما وهو خطأ اذ الانبياء عليهم السلام عصمت من ذلك لان جنابهم ارفع من ان يشار اليه باصبع الطعن وانما المراد بالخيانة الخيانة فى الدين قيل لابن عباس ما كانت تلك الخيانة فقال كانت امراة نوح تقول زوجى مجنون وامراة لوط تدل الناس على ضيفه اذا نزلوا وقرى ابناه على الندبة ولكونها حكاية سوغ حذف حرف الندبة وهذا النداء كان قبل جريان السفينة اذ الواو لا يقتضى الترتيب وكان فى معزل اى فى مكان عزل فيه نفسه عن ابيه واخوته وقومه بحيث لم يتناوله الخطاب باركبوا واحتاج الى النداء المذكور او فى معزل عن السفينة او فى معزل عن دينه وهو مفعل للمكان من عزله اذا ابعده وقيل فى معزل من الكفار قد انفرد عنهم وظن نوح انه يريد مفارقتهم فى الدين ولذلك دعاه الى السفينة وقيل كان ينافق اباه وظن انه مومن وقيل كان يعلم انه كافر الى ذلك الوقت لكنه عليه السلام ظن انه عند مشاهدة تلك الاهوال ينزجر عما كان عليه ويقبل الايمان والجملة فى موضع نصب على الحال وصاحبها هو ابنه والحال يأتى من المنادى لانه مفعول فى الحقيقة يا بنى اركب معنا فى السفينة قرا حفص عن عاصم بفتح الياء هنا اقتصارا على الفتح من الالف المبدلة من ياء الاضافة فى يا بنيا والباقون بالكسر فيكون من قبيل يا غلام فى حذف ياء الاضافة اكتفاء بالكسرة الا ابن كثير فانه وقف عليها فى لقمان فى الموضع الاول باتفاق الرواة وفى الثانى فى رواية قنبل واختلفت الرواية عن عاصم فى ساير المواضع وقد ادغم الباء فى الميم ابو عمرو والكسائى وحفص لتقاربهما وفى الاسرار معناه اسلم وادخل فى السفينة تسلم مع المسلمين ولا تكن مع الكافرين فى الدين والانعزال فتهلك معهم قال كنعان فى جوابه ساوى اى ساصعد وساتنحى واصير الى جبل يعصمنى يمنعنى من الماء اى من الغرق فيه وليس لى بك حاجة ولا اسلم ولا اركب السفينة قال نوح لابنه لا عاصم اى لا مانع اليوم من امر الله اى من عذابه وهو الغرق لا جبل ولا غيره وذكر اليوم للتنبيه على انه ليس كساير الايام التى تقع فيها المصايب وتلم فيها الملمات المعتادة التى ربما يتخلص من ذلك بالالتجاء الى بعض الاسباب العادية الا من رحم اى الا الراحم وهو الله تعالى فينجيه من الغرق فيكون معصوما او المعنى لا مكان يعتصم الا يذنبه من اراده الا مكان من رحمهم الله وهم المومنون ومكانهم ذلك اليوم هو السفينة او المعنى لا عاصم اى لا ذا عصمة من غضب الله الا من رحمه الله فعلى هذه التقادير الاستثناء متصل وقيل الاستثناء منقطع اى لكن من رحمه الله يعصمه وحال بينهما الموج اى وقع بين نوح وبين ابنه فانقطع ما بينهما من المجاوبة او بين ابنه والجبل فكان من المغرقين اى فصار من المهلكين بالماء يعنى من جملتهم لو كان فى علم الله انه يغرق لا انه كان من المغرقين قبل ذلك وقيل بعدما تناهى الطوفان واغرق قوم نوح يا ارض ابلعى

اى انشفى وتشربى ماءك الذى نبع منك دون ما نزل من السماء فصار انهارا وبحارا ويا سماء اقلعى اى امسكى عن انزال المطر نوديا بما ينادى به اولو العلم وامرا بما يومرون تمثيلا لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالامر المطاع الذى يامر المنقاد لحكمه المتبادر الى امتثال امره مهابة من عظمته وخشية من اليم عقابه تلخيصه حكى الله عن سلطانه وقدرته ما تعلق ارادته من وقع على وفقه من غير ريب وانما قلنا نوديا بما ينادى به اولو العلم لانه نوديا باسم يخصهما وهو يا ارض ويا سماء وطلب به اقبالهما تشبيها لهما بالعقلاء المميزين المامورين الذين لا يتأتى منهم العصيان لكمال هيبة الامر وادخالا لهما فى جنس ذلك المامورين على سبيل الاستعارة المكنية وجعل النداء قرينتها على سبيل الاستعارة التخييلية وجعل الامر والبلع ترشيحا للاستعارة لان كل واحد منهما امر ملايم للمستعار منه اما الامر فظاهر واما البلع فلانه ادخال الطعام فى الحلق بعمل الجاذبة والمراد بالبلع ان تشرب الارض ماءها فقط دون ماء السماء فهو استعارة لغور الماء فى الارض والاقلاع فهو مشترك بين الحيوانات والجمادات يقال اقلع الرجل من عمله اذا كف واقلعت السماء بعدما مطرت اى امسكت فليس هو تجريدا ولا ترشيحا ويرجح قولنا نوديا بما ينادى به اولو العلم ايضا على ان النداء والامر وقعا من الله حقيقة ووجد المطلوب منهما تمثيلا لكمال قدرته الى اخره ويحتمل ان يقال انه لا قول ثمة ولا امر ويكون القصد الى تمثيل تاثير قدرته فيهما بامر مطاع للمطيع فى حصول المراد من غير امتناع وتوقف ففيه استعارة تمثيلية ايضا ويحتمل ان يجعل معنى نوديا الخ يعنى عبر بما يدل على ندائهما وعلى الامر لهما تمثيلا الخ وهذا ما عليه الاكثرون والحاصل ففى الاية من عجيب البلاغة وجوه كثيرة منها انه خرج مخرج الامر على معنى التعظيم لفاعله لانه من غير معاناة ولا لغوب ومنها ايراد الاخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل وانه متعين فى نفسه مستغنى عن ذكره اذ لا يذهب الوهم الى غيره للعلم بان مثل هذه الافعال لا تقدر عليه احد سوى الواحد القهار ومنها حسن تقابل المعانى ومنها حسن ايتلاف الكلمات ومنها حسن البيان فى تقرير الحال ومنها الايجاز من غير اخلال ومنها انه قال ماءك باضافة الماء الى الارض على سبيل المجاز تشبيها لاتصال الماء بالارض اتصال الملك بالمالك واختار ضمير الخطاب دون ان يقال ليبلع ماءها لاجل الترشيح ولم يحذف مفعول ابلعى لئلا يلزم تعميم الابتلاع لكل ما على الارض ولما علم اختصاص الفعل به حذف من اقلعى حذرا من التطويل ومنها سبك القصة فى اوجز خطبة الى غير ذلك مما عليه هذا الكلام من الحسن العجيب واللفظ البديع فثبت بان فى الاية من علم البيان لما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها ومن علم المعانى لما فيها فائدة كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتاخير فيما بين جملها لانه اختار يا دون اخواتها لكونها اكثر استعمالا ولدلالتها على بعد المنادى الذى يستدعيه مقام اظهار العظمة والملكوت وابداء العزة والجبروت وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به ولم يقل يا ارضى لزيادة التهاون اذ الاضافة تستدعى القرب ولم يقل يا ايتها الارض للاختصار واختير لفظ الارض والسماء لكونهما اخف وادور واختير ابلعى على ابتلع لكونه اخصر وللتجانس بينه وبين اقلعى وقيل اقلعى ولم يقل عن المطر

٤٤١

Copyright King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com) 1